

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

### الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بني أمية ، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم<sup>(١)</sup> أو ختم الرسائل التي تصدر عنه إلى الولاة ، وبهنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون في الذروة من البيان والبلاغة لزمهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهمياري أثباتا طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ما عني الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون في ديوان الرسائل<sup>(٢)</sup> .

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ( ١٠٤ - ١٢٤ هـ ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل في دمشق بيد مولى لهشام هو سالم<sup>(٣)</sup> ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بغض رسائل لأرسططاليس<sup>(٤)</sup> ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة<sup>(٥)</sup> واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسري ، وهي تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الازدواج والترادف الصوتي . وتبعه في النهوض بالرسائل

(١) الوزراء والكتاب للجهمياري (طبعة الحلبي)

(٣) الجهمياري ص ٦٢ .

ص ٢٤ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٢) انظر في ذلك الفن ومذاهبه في النثر العربي ص

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

السياسية تلميذان: أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله ، وثانيها من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضربت بها الأمثال ، فقيل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد »<sup>(١)</sup> ويقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزوما ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى المترسل »<sup>(٢)</sup> ويقول المسعودى إنه « أول من استخدم التعميدات فى الكتب »<sup>(٣)</sup> واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب ، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية<sup>(٤)</sup> . وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخراج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى<sup>(٥)</sup> وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة<sup>(٦)</sup> طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهى أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدير شئونها من الوجهتين المادية والحرية . وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحنا طوال القرون : الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتّابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظلم دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين ( ٤٩٧ - ٥٤٩ هـ ) رأيناها تعنى

١٧٨/٣

(١) البيهقى للتعالي (تحقيق محمد محي الدين

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها

عبد الحميد) ١٥٤/٣ .

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبي) ص ٦٩

(٢) الفهرست ص ١٧٠ .

(٦) صبح الأعشى للقلشندى ١٩٥/١٠ وما بعدها .

(٣) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء)

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سنى الدولة<sup>(١)</sup> ابن أخي الشاعر ابن الحياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العباد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محلّه عندنا خطيرا ، ومكانه لدينا مكيئا أثيرا ، لاقرين يجاربه ، ولا نظير يماثله ويباريه ، ولا متناول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركنه أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعوّلتنا عليه فيها ، واستهضناه لتوليها ، ورأيناه كفاها وكافيا » .

وكتاباتة على هذا النحو دائما مسجوعة سجعاً فيه غير قليل من الرشاقة والعدوية . وكتب بعده لسلطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد<sup>(٢)</sup> الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العباد شيئا من كتاباته .

ويُظَلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين ( ٥٤١ - ٥٦٩ هـ ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العباد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه فى الملك معه »<sup>(٣)</sup> ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أظلمها حكمه جاء فيه<sup>(٤)</sup> .

« وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتبا من المظالم المصحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقة عليكم فى أرزاقكم ، والمؤن التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن قوض الله - عزَّ وجلَّ - لنا - تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوهه شبهة ولا تأولا » .

وبلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر<sup>(٥)</sup> شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستغفاه من الخنعة سنة ٥٦٣

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع فى أبى اليسر تعريف القدماء بأبى الغلاء ص ٥٠٤ .

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص

٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ

ابن عساكر ٢٧٧/٧ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١/٢٥٠ .

فأقام العباد الأصهباني مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باستكابه في ديوانه بالشام ، وسنفر له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غير منازع . وتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النيه كاتب الأشرف موسى ، وهو مشهور بين شعراء الغزل في مصر ، ومثل عبد الرحيم بن علي بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق ، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندى . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ للمتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتحه لطرابلس واستيلائه عليها من أيدي الصليبيين نوه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين في اللهو ، يقول (١) :

« وكانت الخلفاء والملوك ما فيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه ، مكبٌ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عَنَّ له وَصَفَ الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق المزمعة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من يملكه بالسكَّة والخنطبة ، وأموال تُنهب ، وممالك تذهب . »  
ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخنطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطبتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفي سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين علي في عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندى في صبحه بنماذج كثيرة من رسائله

(١) النجم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع في ترجمته ٣٤/٨

وتوقيعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسائله تدخل في ثلاثين مجلداً وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله في التهنتة بتقليد سيف<sup>(١)</sup> :

« وقلده مِنَّا : سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده ، وتشرق جواهر الفتح في فِرْنده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حدّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا هتّ عزائمّه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعُلم أنه سيفنا الذى على عاتق الملك الأعزّ نجاهه وفى يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفى مصر فى دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخسه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السربها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين ( الخليفة العباسى المقيم بمصر حينئذ ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادئة بائدة العدا ، وفتح على قعر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى بالله الحمد - بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرّداء ، آمنة من الرّدى ، وامتنّ على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسبّدا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح فى هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما فى « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرّداء : الثوب (كتابة عن الأحوال) والرّدى : الملاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلى فى السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

السيف : حائله  
(٢) صحح الاصحى ١٢١/١٠ وانظر فى ترجمته النجوم  
الزاهرة ١٤/١٦١ .

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة  
الوهبية ص ١٠٠ . وفرند السيف : لمعان صفحته .  
والقوادم : ريشات الطائر الكبار فى جناحه . ونجاد

وعين ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السرابه كمال الدين ، وكان تارة يُعزل وتارة يعود إلى كتابة السرحى وفاته سنة ٨٥٦ .

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كُتَّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كُتَّاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كُتَّابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة (١) :

« لاترى العيون لبعده مرماها إلا شَزْرا ، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نَزْرا ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كُتَّاب السرحى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولَّى كتابة السرحى بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح (٢) الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أديبا فصيحاً ذكياً (٣) » . وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابيين .

(١) قوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٢ . فرات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

## العقاد<sup>(١)</sup> الأصبهاني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ ، وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها . وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفق بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العقاد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لتور الدين محمود ، وقلَّته قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكتسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضي إلى نور الدين فأعجب به واتخذَه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح في مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعي ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العقادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء . ولما توفى نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العقاد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد تَوَّأ ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضي الفاضل ، ورغبه في إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفى سنة ٥٩٧ .

والعقاد الأصبهاني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

الشافعية للسبكي ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفي كتابه : البرق الشامي والحريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

(١) انظر في ترجمة العقاد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروستين في مواضع مختلفة والجزء الثاني من مفرج الكرب لابن واصل وغير الذهبي ٢٩٩/٤ والوفاء بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي . ومُرَبَّنَا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتها وهو في سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسي في الفتح القدسي في وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصره الفطرة وعُصْرَةُ القَطْرَةِ في تاريخ السلاجقة ووزرائهم ؛ وذكرنا - في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم « زبدة النصر ونجبة العصرة » وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُقبِي والعُقبِي في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب لحظة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق في ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العماد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم ما فيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحا دَحَرَ فيه حَمَلَةَ الصليب ومُرَقَّمهم تمزيقا كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القاهنين على البلدان من الحكام ، يبشر بالنصر المبين في سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العماد :

« لاختفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كرم ، أنقدها الله من عبيد بني عبيد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعنتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأموني السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطيفة فن حققها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتق لأعضل رُثْمه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها ، وله خمس سنين في بيكارها ( حربها ) متنتها من كفارها متحملا لمشاقتها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العماد في أول القطعة بين « عبيد وعبيد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصريا على الأقل في

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العباد من البشارات في كل انتصار لصالح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العباد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العباد فيها المواقع وصفا تفصيلا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إظنابه في تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتح العظيم ، والتَّجْحُّمُ الكَرِيمُ ، قد انقضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرَةٍ تَمَّيَّه ، وجيرة تَرْجِيه ، ووحشة اليأس من تَسْبِيه ( انفكاك عقده ) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذي أعاد القدس ( الشريعة ) إلى المقدس ، وأعاده من الرَّجْسِ ، وحقق من فتحة ما كان في النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عَزَّ يومه ماحياً ذُلَّ أَمْسِ ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والفضلال من البطرك والقسِّ ، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ( يريد يوم الأحد ) وقع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذي هو فتح الفتح » . والطباق كثير في القطعة ، والجناس يُنثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثَر منه في بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعي أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدي بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله في جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فيضه المستفيض ، وتبَّلَّج (إشراق) وجهه وجاهته وتأرَّج (انتشار) نبأ نباهته ماعرَّفه من عوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدي معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسُّفه في هذا الترتيب » . ويقول السبكي معلقا على كلام الصفدي : « الأمر كما وصف ، ولقد مجَّ سمعي فواتح أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردَّ العجز على الصدر » . على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العباد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع ووقعه ، ويتسع في الإحسان صُفَّعه (جانبه) ويرشِف اللَّبُّ مُدماه ، ويكون عند مَنْ له ذوقٌ أطيبٌ من تغريد حمامه » .

الصفدي<sup>(١)</sup>

هو صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦ وعُني في أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذها عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدُرج بموطنه صفد ، يكتب مايقع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدي ، وعيَّنه في كتابة الدُسُت ، حتى يعاونه في عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدي الشهاب محمود كاتباً مجيداً . وتوفي الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو ما مرَّ بنا في ترجمته ، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام ، وعيَّن رئيساً لديوان الإنشاء بجلب وقتا ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة الدُسُت مساعداً لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر في الوظيفتين إلى أن توفي بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتباً ناظماً ناثراً شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى في خزائنه مرارا ليدكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعاني شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه « خبز الشعير » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله . وشعره في جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بِسَمِّهِمُ الْحَاظِمِ رِمَانِي فَذُبْتُ مِنْ هَجْرِهِ وَيَّيْنِي

وشذرات الذهب لابن العباد ٦/٢٠٠ والدرر الطالع ١/٢٤٣  
وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صبح  
الأعشى وخاصة ١٢/٨٦ ، ٣٥١ .

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١١/١٩  
والدرر الكامنة لابن حجر ٢/١٧٦ والبداية والنهاية لابن كثير  
٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ١٠/٥١ وما بعدها .

إن مت ما لي سواه خضم فإنه قاتلي بعينه  
 ويعد من أكبر المصنفين في التراجم والأدب والبدیع والتقد، وعلى رأس مصنفاته في التراجم  
 كتاب الوافي بالوفيات، وهو في نحو ثلاثين مجلدا، ونشرت طائفة من أجزائه. واستخلص منه مع  
 إضافات جديدة كتابه «أعوان النصر وأعيان العصر» من الأدباء والشعراء وهو في ستة مجلدات،  
 وفي دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة. وألف في مشاهير المكفوفين كتابه: نكت الهميان في  
 نكت العميان، وهو منشور. وله التذكرة الصفدية وهي مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع في  
 انسكاب الدمع: دمع المحبين والعشاق، وله في المحسنات البديعة كتاب فض الختام عن التورية  
 والاستخدام وكتاب جنان الجنام، وله في النقد نصره الثائر (وهو ابن أبي الحديد) على المثل  
 السائر لابن الأثير، والغيث المسجم في شرح لامية العجم، وهو شرح ملئء بالملاحظات  
 النقدية، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ما اتهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ  
 العامية، وشرح رسالة ابن زيدون الجندية بشرح سماه «تمام المتون». وله وراء ذلك كتب أخرى  
 سقطت من يد الزمن، كما أن له بعض مقامات، ويقال إنه كتب وصّف مئين من المجلدات  
 وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع في مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة  
 بينه وبين أدباء عصره.

وكانت رسائل الصفدي الديوانية تشغل مجلدات كثيرة، ولم يحتفظ منها القلقشندي إلا  
 برسائل قليلة، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير  
 أوقاف، وله يقول باسم صاحب الأمر:

«لما كانت دمشق في الدنيا أنموذج الجنة التي وعد بها المتقون، ومثال النعم للذين عند ربهم  
 يرزقون، وهي زهرة ملكنا ودرة سلكنا.. تعين أن نتدب لها من جربناه بعدا وقربا، وهززاناه  
 مثقفاً<sup>(١)</sup> وسلّناه عَضْباً<sup>(٢)</sup> وخبّاناه في خزائن فكرنا فكان أشرف ما يدخر، وأعز ما يحب، كم  
 نهي في الأيام وأمر، وكم شد أزرأ لما وزر، وكم غنيت به أيامنا عن الشمس وليالينا عن القمر،  
 وكم علا ذرى ربّ تعرّ على الكواكب الثابتة فضلا عن يتقل في المباشرات<sup>(٣)</sup> من البشر،  
 وكم كانت الأموال جُادى<sup>(٤)</sup> فأعادها ربيعا غرد به طائر الإقبال وصفر. فليتلّق هذه الولاية  
 بالعزم الذي نعده، والحزم الذي شاهدناه ونشهده، والتدبير الذي يعترف الصواب له

(٣) المباشرات: الأعمال

(١) مثقفا: سيفا مصقولا

(٤) جادى: يريد قليلة

(٢) عَضْباً: قاطعا.

ولا يبحده ، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُساب ، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج في البحار وتنفوت القطر من السحاب » .

وواضح مافي السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا في اجتلاب السجعات . ومن توقعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد <sup>(١)</sup> بها تتبين فوارس الجلاذ في مضايق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال ، وتبدو شמוש الجمال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية - أثناب الله تعالى واقفها - هي الواسطة في عقودها . والدرة الثمينة بلاكفء لها بين قيمم نقودها ، قد تدبج فيها البناء وتأرج عليها <sup>(٢)</sup> الثناء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد » .

وواقع مافي التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب في مثل « جلاذ وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف في جناساته ، بل هي تأتي عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة في التكلف . وكثير من جوانب توقعاته سلس سائغ . وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

(٢) تأرج عليها : عطرها :

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

ابن حجة<sup>(١)</sup> الحموي

هو تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي ، ولد بحجة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكناس الذي مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل في دواوين حاة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزي موطنه كتابة السربها ، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزي بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذة كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزي معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبي ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزي وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) وظل كاتباً للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباي سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حاة ، وظل بها مكثبا على التصنيف والتأليف حتى توفي سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية في المديح النبوي وما حمل آياتها من محسنات البديع لزمه ، وهي في مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا في سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء في زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله في البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التي ينبغي ان تراعى في الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضي الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب في مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العباد ٢١٩/٧ والنجوم  
الزاهرة ١٨٩/١٥ .

(١) انظر في ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة  
الأدب في مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكاني ١٦٤/١  
والضوء اللامع للسخاوي ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعماني

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الخزنة بباب إرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتباً ، وأنشد فى الخزنة كثيراً من شعره ، ويقول الشوكانى : « قد يأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفى الخزنة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولاً بالشام ثم ما أنشأه فى عهد المؤيد ثم فى عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصادح فى كتاب سماه « قهوة الإنشاء » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضاً كتاب له محفوظ بأسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونبدي لعلمه الكرم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقّ قفا السودان فالرأية البيضاء من كل قلع <sup>(١)</sup> عليه ، وقبّل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلوفالت غصونها إليه .. وحصن مشتهى الروضة فى صدره وحنّا عليها حنو المرضعات على القطيم :

وأرشفنا على ظمياً زلالاً ألدّ من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بملو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالتق الثوى والحبّ ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأبّ .. ونسى الزهر بجلاوة لقائه مرارة الثوى ، وهامت به محذرات <sup>(٢)</sup> الأشجار فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة » .

والسجع فيه عدوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتباً مجيداً إن لم يكن بارعاً ، وأطال السجعات ليحملها ما يريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، وما نمضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

الرجال . والاستطرة واضحة

(١) يريد قلع السفن وشرعها

(٢) المحذرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجاباً عن

الآيات فلا يريد آيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليحلب كلمة الأب مورياً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذنا من قوله تعالى : ( وفاكهةً وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم ) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى التمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضاً في كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشح لها من ذكر الحضور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفي الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشي الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصوراً علمه :

« هو أبو العلماء الذي ولّد من الأم أفراحهم ، وأبو المهات الذي شهّر من العُدّة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقرّبه بالعجاب ، ويغنيا عن موضح القشيري فإنه يغذيها في إبانته باللباب .. وقد وقع العموي في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعبون المسائل وتاج رموسها والمذهب الذي تهذبه في أدب القاضي كفاية ، وهو البحر الذي مادخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنيا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي ، وقد بدأها في السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعي ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعز بن عبد السلام ، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني ، وأشار معه في نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالي وتقريب الفقّال الشاشي ، ثم ذكر اللباب وهو لباب الألباب للآمدى في علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيراً إلى كتاب الإبانة في فقه الشافعية للفرّاني ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ونهاية المطلب المذكورة آنفاً والمذهب لأبي شامة المقدسي والتهذيب للبهقي وأدب القاضي للهاوردي والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجويني . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد رويّة وتأمل فيها ابتغاه عنها من توريات .

## الرسائل الشخصية

مرّ بنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم أخذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتها لها حيثند من كبار الكتاب من لا تزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة<sup>(١)</sup> تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعدوية ومع ما عُرِف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث العنابي كلثوم بن عمرو ، وله بدوره - رسائل شخصية<sup>(٢)</sup> تروج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية ، فشاغ في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم في كتاباتهم فعَمَموه في رسائلهم الشخصية . ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد<sup>(٣)</sup> الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البيغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعراً مبدعاً وكاتباً بارعاً ، وفي كتاباته يقول الثعالبي « نثره مستوف أقسام العدوية وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبي من رسائله كقوله مثنياً ، مطرباً .

« شهابُ ذكاء ، وطُودُ وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالي بأفعاله مشرقة ، والأقذار لحوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » .  
وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتْه ، أمن من الدهر شدتْه ، ومن فَرَّعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

(٣) انظر ترجمته ورسائله في البيعة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمنظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبي ٦٨/٣ وابن خلكان . ١٩٩/٣

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى الباني الحلبي) ٤٣٤/٢ وفي مواضع متفرقة .  
(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

## (١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُثبت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولها رسالة المنيع وهو القُدْح الثامن من قِداح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار ، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردًا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتصوّع <sup>(١)</sup> ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَعَمْنَا <sup>(٢)</sup> على بُعد الدار أَرَجُ <sup>(٣)</sup> أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلّبه ، وخَوَّل <sup>(٤)</sup> الأسماع سُوقًا <sup>(٥)</sup> غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وُهب لنا شرف عَظِيم ، وأُتِيَ إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحَبِير <sup>(٦)</sup> ، ومالك أعتة النظم والنثر ، قراءته نُسْك ، وختامه بل سائرهِ مِسْك ، وفي ذلك فليتأنفس المتأنفسون . جَلُّ <sup>(٧)</sup> عن التقييل فظلاله المقبلة ، ونَزّه أن يتنذل فنسخة المبتدلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة <sup>(٨)</sup> ، على ماضمن من الملاحه ، والحشية على دُجَي مداده من التوزُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللثّم ، والموارن <sup>(٩)</sup> بالانتشاء <sup>(١٠)</sup> والشّم ، حتى تصير سطورهِ لَمَى <sup>(١١)</sup> في الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظه الدين من القمار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التي ليست لحظًّا

(١) يتصوع : يفوح .

(٢) فعمنا : ملأ أنوفنا .

(٣) أرج : شدى .

(٤) خول : أعطى .

(٥) سُوقًا : أفراطا .

(٦) الحبير : العالم .

(٧) جل : تزّه .

(٨) الإلاحة : الإشفاق .

(٩) الموارن : الأنوف .

(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .

(١١) اللمى : سمرة حسنة في الشفة .

بالخائزة .. فيا شرفه من صكّ بالفخر ، يَبْجَحُ به على التُّظْرَاءِ حَيْرِيَّ<sup>(١)</sup> الدهر ، موشحاً بكل شذرة أعذب من سُلَافِ العنقود ، وأحس من الدينار المقنود ، فجاء كلوائح البروق ، أويوح<sup>(٢)</sup> عند الشروق .

وإذا مضينا بعد ذلك في قراءة رسالة المنيح - وهي طويلة - أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها ما يقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجع ، بل مع غير لفظ في كل سجعة ، وكأنما كان يطلبه طلباً في سجعاته ، أو كأنما كان يعدّه زينة ينبغي أن لا تخلو منه سجعته . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة المبعدة في الإغراب مما قرأه في الشعر القديم وفي كتب اللغة ، ولا يهمله أن تكون الكلمة مما دُوّنَ في المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالاً لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتبي بذلك في بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هي حشد الألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ما نقرأ في رسائله المعروفة برسالة الإغريض وهو ما ينشئ عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضاً إلى أبي القاسم المغربي وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغَمَ الطاء في الماء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غَدِّ وأمس ، وجعل الله رتبته التي هي كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبداً ، فقد جعلني إن حضرت عُرِفَ شاني ، وإن غبت لم يُجْهَلْ مكاني ، كيا في النداء ، والمخدوف من الابتداء ، إذا قلتَ زيْدُ أقبلُ ، والإبْلُ الإبل ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أُلْقِيَتْ فبواجب ، وإن دُكِرَتْ فغير لازب<sup>(٣)</sup> ، إني وإن غدوتُ في زمن كثير الددِ<sup>(٤)</sup> كهاء العدد ، لزمت المذكر فأتتْ بالمنكر ، مع إلفِ يراني في الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت<sup>(٥)</sup> الرصين ، فهي لا تثبت على طريقة ، ولا تُدْرَكُ لها صورة في الحقيقة »

وهو يدعولأبي القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الأبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء

(٤) الدد : اللهو واللعب .

(١) يبجح : يفخر . حيرى الدهر : أهد الدهر .

(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والملد .

(٢) يوح : اسم الشمس .

(٣) لازب : لازم .

في الهاء وهي لا تدغم فيها أبداً ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لا يكسد صوته يبين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لا يدغمان أبداً ولا يتحدان كالأمس والغند . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو ، إذهما بسبب رفعهما في أعلى الرتب . ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفاعل لا يلحقه خفض ولاجرُّ أبداً . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفاً رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكانها محفوظة ذكرت مع المنادى أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ ، فتقول : محمد أي يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أي هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم في منزلته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أوتائه من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس في العربية العكس . ولا يمكنني بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط في درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا في لغة تميم ، فيقولون في أن عَنَ ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أو كما يقول « بين بين » وقد تسهل تماما فتصبح حرف لين مثل سال في سأل ، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهل مثل أمر ، فهي كما يقول أبو العلاء لا تثبت في العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعب نثره على قارئه ، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوي لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة في الرسالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف ، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطي بدار المعارف . وتتكاثر في الرسالة المعارف عن المرأة وجليها ولا بأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية . وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء في عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويراً لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقى واجتماعى وسياسى وأدبى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعيات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبى طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي :

« شوق إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمحلة ، إلى السحابة المُمسحلة<sup>(١)</sup> ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواء الغريضة<sup>(٢)</sup> ، وتشوقى لأخباره تشوقَ راعى أنعام<sup>(٣)</sup> أُجذب فى عام بعد عام ، لبارق<sup>(٤)</sup> يمان ، هوَّله مرتقب مُمان<sup>(٥)</sup> . وأسنى لفقده أسف وَحْشِيَّة<sup>(٦)</sup> ، رادت<sup>(٧)</sup> بالعشيَّة ، فخالفها السَّرْحانُ إلى طَلَا<sup>(٨)</sup> راد فحار<sup>(٩)</sup> فهى تطوف حول أميل<sup>(١٠)</sup> ، وترى صبرها ليس يجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدمه انتظار تاجر مكة وَفَدَ<sup>(١١)</sup> الأعاجم ، وربِّ الماشية ظهورَ الثَّبْتِ الناجم<sup>(١٢)</sup> . »

وبدون ريب تُعدُّ رسائل أبى العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائماً يُعنى فيها بالسجع إلا قليلاً ، وقد يلتزم فيه ما لا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودالماً نلتقى فى رسائله بالألفاظ الأبدية المعنة فى الغرابة وإن لم تمنع فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو ما يلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهداً لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « المحملة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتصاویر .

- |  |   |
|--|---|
| (١) المسحلة : المطرة                             | (٧) رادت : ذهبت تطلب الكلاء             |
| (٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة         | (٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب |
| (٣) الأنعام : الابل .                            | (٩) حارها : تحير                        |
| (٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله بمنيا | (١٠) أميل : كتيب عال                    |
| حتى لا يخلف مطره                                 | (١١) يريد : قدم وفود الحجيج الأجانب     |
| (٥) ممان : متناول                                | (١٢) الناجم : الذى لاساق له             |
| (٦) يريد بقرة وحشيه                              |   |

## (ب) رسائل متنوعة

طبيعي أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهنتين على منصب كبير أو معاتبين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألم بأصدقائهم أو في فقيده عزيز ، وتارة يؤثنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرأئي الشاعر الكاتب والغزّي إبراهيم بن عثمان الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصبهاني : « كانت بينها مكاتبات مفيدة وبينها لنسب الفضل المؤدّة الوكيدة » ويسوق العماد للغزّي رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها <sup>(١)</sup> :

لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامي دام ساميا ، وليبضة المجد حاميا - إذا علق  
بِعَرْض الكرام كان كالنار في المندي <sup>(٢)</sup> ، ييوح بسرّ طيه الخفي .. فإن وقع من السفهاء إفك  
فداعيته ما ظهر لهم من انمائه ، وانتساب مُرنته إلى سماءه .

وانتخاب الغزّي لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسي الذي ترجمنا له بين الشعراء نرح عن دمشق إلى قلعة شَيْر في الشمال خوفا من ابن الصوفي وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حلّيم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها <sup>(٣)</sup> :

« إن جراحي إلى الآن لم تَذق حلاوة الاندمال ، وقروحها تزداد قرحا مع الحلّ والتّرحال ،  
وبين جوانحي من الأين <sup>(٤)</sup> ، لما لقيتُ بدمشق من العَيْن ، مالا يجله إلا عَقْدُ الكفن ، ولا يرفع  
حدّته إلا التيممُ بصعيد <sup>(٥)</sup> المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خَلقِ ذَمِيم <sup>(٦)</sup> ، وخلق  
ذميم ، وأصل لثيم ، وفرع زَيم <sup>(٧)</sup> ، ووجه لَطيم ، وقفاً كليم <sup>(٨)</sup> ، وهلم جراً من عذاب أليم ،  
وصراط في الود غير مستقيم . »

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتباً بارعا ، تواتبه الكلمة وتنزل في

- |                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| (١) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١ | (٥) الصميد : التراب            |
| (٢) المندي : عود الطيب       | (٦) ذميم : قبيح . ذميم : مدموم |
| (٣) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١ | (٧) زيم : دعوى                 |
| (٤) الأين : العناء .         | (٨) كليم : جريح                |

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجلالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدنا عنه بضمير الغيبة<sup>(١)</sup> :

« ماعسى أن يقول مطربه ومادحُه والفضل نُغبة من بحره الزاخر ، وقطرةً من سحابه الماطر ، تفرَّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدَّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكمامًا تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآياتٍ فصاحةٍ كادت أن تُتلى فى المحارِب ، إذا استنطقتْ ازدهمتْ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بحره حلَّو سلسال . »

ونخصى إلى أيام المماليك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمناه له بين شعراء المديح ، وله - كما أسلفنا - كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى الترسل البديع » وعنه يتنقل كثيرا القلقشندى فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهنتة بعيد الأضحى جاء فيها<sup>(٢)</sup> :

« جعله الله أربك الأعياد وأسعدها وأيمنَ الأيام وأمجدها ، وأجملَ الأوقات وألذها وأرغدها ولا يرح مسرورا مستبشرا ، منصورًا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معبودًا ، مهنتًا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حُلَّة ، ومنحه من المكارم أحسن خُلَّة . »

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهنتًا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبًا ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوائب فى

مجموعة سنة ١٣٠٠هـ ص ١٦٣

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

« بلغني انهداؤ الطود الشامخ ، وزوال الجبل الراسخ ، الذي بكنه السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض ، فشَرِقَتْ<sup>(١)</sup> أجفان المملوك بالدموع ، وأحرق قلبه بين الضلوع ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزّي فيه ، والأقلام تمشى على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . . ولاخاصاً إلا حزن قلبه ، ولعاماً إلا طارئُبه » .

وكان يحنح في نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع في هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضاً فإنه كان يعنى يجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهي : الندب عن معناه الحقيقي وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رؤوسها حزنا وهي فعلا تمشى على رؤوسها أو بعبارة أخرى تكتب برؤوسها ، فاستغل ذلك في تعزيبته .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سكيناً أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله<sup>(٢)</sup> : « المملوك يُنهي وصول السكين التي قطع بها أوصال الجفأ ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفا ، وتالله ماغاب إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحفأ .. ماشاهدها موسى إلا سجد في محراب النَّصاب<sup>(٣)</sup> ، وذلك بعد أن خضعت له الرؤوس والرِّقاب .. أنملة صبح تقمعت بسواد الدجى ، فعوذتها بـ ( الضحى والليل إذا سجاً ) .. تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح في القطعة ، فقد ذكر الجفأ أى البعد ، وفكر في سجعة معه فجاء بالشفا والحفأ وأصله رقة الخف ويريد المبالغة في تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمخرباب عن موسى الخلاق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضاً بمواظبة الخمس إذ لا يريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

وغضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة في تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمي المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة في معاتبته<sup>(٤)</sup> :

(١) شرقت : غصت .

(٢) نصاب السكين : مقبضها

(٤) نفاة الرجمانة للمحى ٢٤٧/١

(٢) خزنة الأدب للمحوى ص ٢٥ ، ٥٢٧

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه في الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُبصر ، أو كالعناء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، قتلهم . . كلعن السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أو كالخيال الذى يبدو فى المنام ، وهو فى الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبى فى نفحة الرحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبى وبين عبد الغنى النابلسى الصوفى ، وله يقول متودداً مثنياً مشيداً بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى (١) :

« مولاي الذى سار فى بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله فى جسم العالم مقام الحواس الخمس ، لازال فى السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر ينزله ، كأنه البدر والدنيا مَنَازله ، ومن شايعه مسعودٌ يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دَوْحِكَ (٢) ، وغصن من سَرْحَتِكَ (٣) ، بل نَبْتُ سَقْتِهِ أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك » (٤) .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التى رأيناها فى أيام المالك ، فهو يعتمد دائماً على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

### ٣

#### المقامات

كان لبديع الزمان الهمداني فضل سبق الى استحداث فن المقامات فى العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحتمل على سامعيه عباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبغوا عليه شيئاً من عظامهم يعينه على سدّ حاجاته فى الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القَصِّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لاتعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع

(٣) السرجة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٤) الغوادى : السحب

(١) نفحة الرحانة ١٣٩/٢

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

الزمان ، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريري وبتدع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهأها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام المالك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثانى من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصص احتيالاته الأدبية قصصا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قرناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتتزه فى الرياض ولقائه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارا طريفا ، وهو يفتتحها على هذا النمط<sup>(١)</sup> :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولع بنظم الأراجيز ، ومذ شب عمري عن الطوق ، مغرى بالغرام والتوق ، وأهيم بالشمول<sup>(٢)</sup> والشائل ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتتزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض<sup>(٣)</sup> ، وولجت<sup>(٤)</sup> بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة<sup>(٥)</sup> العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رشف الرحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعماثرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة المتتاعة<sup>(٦)</sup> :

(١) انظر المقامة ملحقه بديوان التلعفرى (طبع المطبعة

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن شاعر ٦٥٠/٢

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار

الكتب المصرية) ٢٠١/١

(٢) الشمول : الحمر .

(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف

« سألت عن الخبر، ممن غير، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق<sup>(١)</sup> اللهب اللامع، فبادرت إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام مَعْصُرات<sup>(٢)</sup> ذوائبها، وصعدت إلى السماء عَذَبَاتُ ذوائبها. . وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي (ترمي بشرير كالقصر)، فكلم زمر أوضحت لذلك الدخان جائية، وكلم نفس كانت في النازعات وهي تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايلبها وتفتي مايسفلها ويعتليها » .

وواضح في سجعته طلبه للجناس . فهو يجانس بين الخبر وغير، والجامع واللامع، واللحم والشحم، ويمضى في مثل هذه الجناسات الناقصة، واشتهر لزمه بالتصنع الشديد للجناس . وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعاً لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهي أطراف العائم التي تطرح عليها، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي إبتليت به دمشق وأهلها بلاء عظيماً . وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمي بشرير كالقصر) وهي في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق . وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو، فذكر (الزمر) أى الجماعات و(الدخان) و(الجائية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى في سورة (الغاشية) والغاشية القيامة .

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعاً لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القصّ والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه . وغلب عليها ذلك أيضاً في أيام العثمانيين وولتقى في نفحة الريحانة للمحجى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقي من بني النقيب، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو<sup>(٣)</sup> .

« نَرْجِسُ نَعْتَهُ الْفَتُورُ ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور .

(٢) معصرات : مصبوعة بالعصفر، وهو صبغ أصفر

(٣) نفحة الريحانة ٣٥/٢

(١) عقائق : جمع عقبق وهو حجر كريم أحمر شبه

به الصفدى اللهب

وَشَقِيقٌ كَأَنَّهُ أَقْدَاحُ الْعَقِيقِ<sup>(١)</sup> ، قَدْ رَسَبَ بِقَرَارَتِهَا مِسْكٌ فَتِيقٌ  
وَأَدْرِيونَ<sup>(٢)</sup> كَأَنَّهُ مَدَاهِنُ عَسَجِدٍ ، عَلَى سِوَاعِدِ زَبْرَجِدٍ  
وَسِوَسِنِ كِبْيَاضِ السِّوَالِفِ ، أَوْ جِيَادِ<sup>(٣)</sup> الْوِصَائِفِ  
وَقَرْنَفُلٍ كَأَنَّمَا تَوَقَّدُ بِالْجَمْرِ ، وَانْعَقَدُ مِنَ الْخَمْرِ  
وَيُظَلُّ طَوِيلًا فِي وَصْفِ الْأَزْهَارِ ، وَيُخْرَجُ مِنْهَا إِلَى وَصْفِ الْأَطْيَارِ ، بِمَثَلِ هَذِهِ الْأَسْجَاعِ الْمَلِيئَةِ  
بِالْتَشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ .

وروى المحبى لعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق  
عثرا فيها على قصر على البنيان فدخلاه ، يقول<sup>(٤)</sup> :

« فصعدنا إلى قصر مَشِيد<sup>(٥)</sup> ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشِيد<sup>(٦)</sup> ، فيه الغرف  
الرفيعة ذات التزيين ، والمقاصير المصنوعة لقاصرات<sup>(٧)</sup> الطُرفِ عَيْنٍ . قد طَلَّتْ شَبَابِيكُهُ عَلَى  
تِلْكَ الْأَرْجَاءِ الْمَوْفِقَةِ ، وَالْجِدَاوِلِ الْمَتَدَفِقَةِ ، وَأَرْضِهِ مَفْرُوشَةٌ بِأَفْخَرِ الْوَشِيِّ وَالِدِيْبَاجِ ، وَقَدْ أَطْلَقْتَ  
فِيهِ مَبَاخِرُ الطَّيْبِ فَزَادَ فِي الْإِبْتِهَاجِ .. فَحَلَسْتُ أَنَا وَصَاحِبِي عَلَى تِلْكَ الْأَرَاثِكِ الْمَمْنُوعَةِ<sup>(٨)</sup> ،  
وَالْفُرْشِ الْمَرْفُوعَةِ ، نَتَنَاشِدُ الْأَشْعَارَ ، وَنَتَشَبِّثُ بِأَذْيَالِ الْأَفْكَارِ . »

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ وما يلبث أن يقول له :  
« ما ذلك القصر الموصوف سوى جَبَّتِي هذه وثوبى هذا الصوف ، والشبابيك جيوبه وأطواقه ،  
ولا عجب أن نَفَحَتْ فِيهِ مَبَاخِرُ الطَّيْبِ لِإِنِّهَا قَرَاطِيْسُهُ وَأُورَاقُهُ . وَكَأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْمَقَامَةِ رَمُوزُ  
صُوفِيَّةٍ جَلَّاهَا عَبْدُ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيُّ فِي تِصَاوِيرِ الرِّيَاضِ وَالْقَصْرِ وَتَهَاوِيلِهِ . وَحَرَى بِنَا أَنْ نَقِفَ قَلِيلًا  
عِنْدَ ابْنِ الْوَرْدِيِّ أَهْمَ كِتَابِ الْمَقَامَةِ الشَّامِيِّينَ . »

- 
- (١) العقيق : حجر كريم أحمر . فتيق : فاتح .  
(٢) الآدريون : زهر شديد الصفرة . والمسجد : الذهب  
(٣) جياذ هنا : جمع جيد أى عتق .  
(٤) نفحة الريحانة ١٥٢/٢ وما بعدها  
(٥) مشيد : عال مرتفع .  
(٦) الشيد : كل ما طُلِّبَ به البناء من جص وغيره  
(٧) قاصرات الطرف : خجالات حبيبات . عين : جميلات واسعات الأعين .  
(٨) الأرائك : مقاعد متجدة الممنوعة : أى عن الناس

ابن الوردى<sup>(١)</sup>

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد في المعرة بلدة أبي العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر في الدرر : بل نشأ بحلب وهي حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيها وفقهها ومفتيها الشافعي شرف الدين البارزى . وتنقل في بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله في الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزملى كافي قاضي قضاة الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله في ابن الزملى كافي مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه . ورأى ابن الزملى كافي فيها بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويؤمى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفي سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى في الفقه الشافعي في منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود في شعراء القرن الثامن النابيين ، ويقول ابن شاکر : « أجاد في المثنوي والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . ودبوانه كبير وهو مطبوع في الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكي في ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفي رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبداع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات في الديوان المقامة الصوفية ، ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية في مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم في الحديث هذا الوافد المعري ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

والبدر الطالع ١٤/١ و١٤/٦ و١٦/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع في الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

(١) انظر في ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكي ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٣/٢٧٢ وفوات الوفيات ٢/٢٢٩ والنجوم الزاهرة ١٠/٢٤٠

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبساً ، وخالفوهم أنفصاً . والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى في مقاماته ، يقول (١) :

« حكى إنسان ، من معرّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بواد وقانا لفحة الرّمضاء (٢) ، وقال : حكمت على الوادى الذى ترع حصاه حالية العذارى قفلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر ، فرويت كبدَ صادق (٣) من تلك العين ، ولكن نُقص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين . »

وقد تصنع ابن الوردى في أول مقامته لمصطلح التعريف والتذكير في النحو ، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر في وصف واد للمنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم  
ترع حصاه حالية العذارى فتلمسُ جانب العقد النظيم

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلّ ابن الوردى ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التي تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله في كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نمض في قراءة المقامة لنراه وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة في حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرئى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلى ابن الوردى بمدرسها النورية ، فإذا مدرستها

(١) الديوان ( في مجموعة طبعة الجواب ) ص ١٣٣ (٢) صاد : عطشان شديد العطش

(٣) الرّمضاء : شدة الحر

بقاضى حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتي شعر ، سامها<sup>(١)</sup> فضل سعر ، وأقام وزنها ، وقال إنها وإنها ، وأنا رسول أصحابي إليك لتنصف بيننا وقد دُللت عليك » فقال له : قل ما أردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل وغير الغزل ، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهية وفيها يلتقى شخصٌ معرّياً أميراً يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة ومايجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصرارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضى القضاة ابن الزملىكانى الذى أمر بإبطالها وشدد في النكير عليها ، ويدعو له قائلاً :

« لا زال نَدَاهُ<sup>(٢)</sup> مثل حرف النداء ، كفيلا بضم الأقرين والبعداء ، من وُصل به نال عُرْفًا<sup>(٣)</sup> ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفًا ، حتى يكون علمه علماً منصوباً ، وعواطفه للمعارف خبراً مبتدأً به منصوباً ، ولا يبرح مرفوعاً بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثة ماضية فهى على الفتح تُبْتَى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو في عبارات الثناء على ابن الزملىكانى وسجعاته ، فلا زال ابن الزملىكانى مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التابع ، وهى العطف والنعمة والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوباً » وأراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده في هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائماً ولكن من حين إلى حين تلقانا في نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف لشديد .

ومقامته الخامسة في وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق في وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى في الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيراً منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق في

(٣) العرف : المعروف

(١) سامها فضل سعر . غالى فيها في السعر

(٢) نداء : كرمه

وصف الحريق» . وله رسالة بديعة في وصف وباء الطاعون الذي فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسمى ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء في الديوان - باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التي كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهي رسالة طريفة .

## ٤

### المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب المساجد كل يوم جمعة وفي العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تخرج بخطب الوعظ وإن لم تكن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول ما يلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القصاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيّن للقصاص مراتب<sup>(١)</sup> خاصة . ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثاني وفي مقدمتهم الأوزاعي صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حيًا مزدهرًا في القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقي بأبي العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول : « إن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبية للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفري » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له في النثر دعاء

(١) انظر في ذلك كتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي

(طبع دار المعارف - الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون لنا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو في عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقي من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويستخدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية في نفوس الناس ، حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محيي الدين محمد بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها ، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيَتْ بالقدس بعد فتحه ، وسلم بخطبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المهذب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصهباني - كما يقول بخريدته - بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعدُّ سبط ابن الجوزي يوسف بن قزوغلي أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ في حجر جده ابن الجوزي واستمع إلى مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمتزلة العظمى ، وكان له لسان حلوف الوعظ والتذكار ولكلامه موقع في القلوب <sup>(١)</sup> » ويصف أبو شامة مجلس وعظه في كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرتُ مجالسه صغرى وكبرى في الموضوعين مرارا ، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفضَّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر . وكان يجلس [ للوعظ ] كل سبت وتُبَسِّطُ السجادات والحُصُر والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر مابينه وبين القبة في يوم الجمعة ،

وبييت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن» (١) .

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسي ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس في تقليس إبليس » وهي رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغي . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وستحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ . ولى خطابة الجامع الأموى فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها ( فاتحتها ) : الحمد لله الذى أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته (٢) » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطردها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

### (١) خطب ابن نباتة الفارقي

ابن نباتة الفارقي هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ماعمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ، ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والنادى يتادى كل يوم ياعباد الله

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩ (٢) انظر في ابن نباتة الفارقي ابن خلكان ١٥٦/٣

وعبر الذهبي ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

(٢) خزنة الأدب ص ٢٠

الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوتٌ ولا تعجيل ، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطعمون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبه والمثيل .  
ولغة ابن نباتة فى خطابه عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مرنا عند العباد الأصهبانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحْبَطُوا صيامكم بالعيبة والنميمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسحور ، ياغافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، ياهاتما فى تيه الهوى أما نخشى ظلمات القبور .. ياماتلا إلى زهرة الدنيا ، وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ياعادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم الشُّور .»

وهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفتدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابه ببيانه الرائع .

### (ب) الفصول (١) والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة (١) للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة (٢) ، ولعل من أسبابها أنه سمي الكتاب :

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية

القصر ١٣٠/١ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زنائى) وقد

نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف الحاء .

(٢) راجع سفرنامه لناصر خسرو (الترجمة العربية

« الفصول والغايات في محاذة السور والآيات » وهو لا يريد محاذة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول في كتابه : « علم ربنا ما علم ، أتى ألفت الكلم ، أمل رضاه المسلم ، وأتى سخطه المؤلم ، فهب لي ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلئ حتى ليقول <sup>(١)</sup> :

« لو نقلت مياه اللجج على منكبي في قُذاف <sup>(٢)</sup> ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجررت كُتبان الأرض وصرائمها <sup>(٣)</sup> في جرٍّ أو مشاة <sup>(٤)</sup> ، فألقيتها في الخُضَر <sup>(٥)</sup> الدائمات ، حَفْدًا <sup>(٦)</sup> لله كنتُ أحدَ العجزة المقصَّرين ، ولو أذن لي وأيدتُ فاتبنتُ مراهص <sup>(٧)</sup> من الثرى الأسفل إلى الثريا ، ومن الوتد ، المتخذ من عود إلى وتد السُعود <sup>(٨)</sup> ، لم أوذ ما يوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وهو يقول : مها تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغاها على مناكب الجبال ، وحتى لو جر كُتبان الأرض كئيبا وراء كئيب في زنايل وألقاها في لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابنتى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السُعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ماتوجه تجلته الله وعظمته . وإذ إنه ليصبح مبتهلا إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفى غضبك فهب لي عينين كأنها غماتنا شتى <sup>(٩)</sup> تَبْلان <sup>(١٠)</sup> الصباح والمساء <sup>(١١)</sup> » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . ولهذا الصبيحة أخوات كثيرة في الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناحى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السُعود : سعد الأختية : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر

(١٠) تَبْلان : تهلان ، من الويل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قذاف : جرة

(٣) صرائم : جمع صريمة وهي القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشاة : زيل

(٥) الخُضَر : اللجج

(٦) حَفْدًا : خدمة

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائماً . وليس هذا كل ماصعبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيراً من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيراً ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشياً خليقاً أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهِراً لبعض مصطلحات علم الصرف<sup>(١)</sup> .

« لاتجعلنى ربّ معتلاً كواو يقوم ، ولا مبدلاً كواو موقن من الياء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولاغناء ، مشبهها لايجب من التسميات . »

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها مُيقن ، فقلبت الياء واواً لسكونها وانضمام ما قبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنها مشتقتان من الجدول والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكسب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيراً من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ما قدمناه لناخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطاً وتفصيلاً وتحليلاً .

(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محبي<sup>(١)</sup> الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة في دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاه قضاءها ، حتى إذا فُتحت القدس ، وكان محبي الدين حاضرا ففتحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة ، وأعدَّ من كانوا في حضرته خطبا بليغة يخضبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محبي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع في الخطبة . وقال<sup>(٢)</sup> فيها .

« الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمدته على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأولياته ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أذناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة<sup>(٣)</sup> ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتدائها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة<sup>(٤)</sup> الشُّرك عن طرقة بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يجاريكم فى شرفها مُبار . وهذا هو الفتح الذى فُتحت له أبواب السماء ، وتبلَّجت<sup>(٥)</sup> بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عينا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعُصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الردى ،

١١٠/٢

(١) انظر ترجمة محبي الدين في طبقات السبكي

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفي المثل :

١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبي ٢٠١/٤

الحكمة ضالة المؤمن

١٨١/٦ والنجوم الزاهرة

(٤) إماطة : تحية وإبعاد

والشذرات ٣٣٧/٤

(٥) تبلجت : أشرقت

(٢) انظر الخطبة كاملة في ابن خلكان والروضتين

ورجع القهقري .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .  
والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح  
المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بدر وفتوح الشام ومصر والقادسية  
وهجرات خالد والصحابة الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

### (د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن <sup>(١)</sup> غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور  
لزمه المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب في ٣٠ صفحة ، ذكر في مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلاً :  
« قد وضعت كتابي هذا مترجماً عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجداد بغمزه ، وماخاطبتني به  
الأزاهير بلسان حالها ، والشعاريير عن مقار ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور  
والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه  
خرج يوماً ليتأمل في الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقّ نسيمها وغنّى عندليبها ، وكان  
وحيداً وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالاً على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم  
صنّعه ، وسجل من ذلك عظات بليغة على السنة الأزهار ثم السنة الطير ثم السنة الحيوان . وبدأ  
بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار  
وأحد عشر نوعاً من الأزهار استهلها بالورد قائلاً على لسانه « أنا الضيف ، فاغتموا وقتي فالوقت  
سيف ، أعطيت نفس العاشق وكُتبت ملاحه المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المזור ، ومن طمع في  
بقائي فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكذور ، والعيش المحرور ، أني حيناً نبتُ رأيت  
الأشواك تزاحمني وتجاورني ، فانا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكني مجروح . وهذا دمي على  
عندمي يلوح ، وهذا حالي وأنا أल्प الأورد ، وأشرف الورد ، فن صبر على نكد الدنيا بلغ  
المراد » .

وختم ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريد بها ، وجعل الورد ضيفاً على الطبيعة ، لأن مدة بقاءه  
فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذقت الناس فيها من حلاوة  
العيش لا بد أن تجمع إليهم شيئاً من مرارته فليست الدنيا ورداً خالصاً ولا حياة لإنسان فيها دائماً

لابن العام ٣٦٢/٥ .

(١) انظر في ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن

كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان للباقي ١٩٠/٤ والشلوات

مشرقة زاهية بل لا بد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل وآس وسرور وحزن ، وحرى<sup>١</sup> بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذي ظلما ذكر المحبون في لينة وتمایل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد أُنقِد ، وإلى الحَبُّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشربها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صَمَد ، وموجدتها بالقدرة قد انفرد ، لا يشاركه في ملكه أحد ، ولا يفتقر هو إلى أحد ( لم يَلِدْ ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد ) .»

وهي عظه بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضياء الزهر بألوانه وانقِد ، وحب الثمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وما أعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعمومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التي لا يشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثل شيء وهو على كل شيء قدير .

وينقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيوار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا الهائم اللهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدني في الرياض فرحان ، وفي الغياض<sup>(١)</sup> أردد الألحان . . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لي عيدان<sup>(٢)</sup> ، وانت تحسبي في ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست في يميني حائنا ، أنا أنوح حزنا لاطربا ، وأبوح ترحا لافرحا ، لأجد روضة إلا نُحِتْ على اضمحلها ، ولاخضرة إلا تبلبت على زوالها ، لأنني مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت في تمثال العرفان ، كلُّ من عليها فان .»

والهزار في أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان ما يفكر في انتهائه ، فيندب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل ما فيها من صفاء لا يلبث أن تغشاها كدرة قائمة ، وكل ما فيها من عيش حلو لا يلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل ما فيها هالك فان . وسعد من كُتبت له السعادة ، وشقى من كتب له الشقاء . وينقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهي الشجر الملتصق

المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويحتم حديثه عنها بكلام على لسان الفملة إذ تقول :  
 « إذا رماك الدهر بمرمى فقم له ، وإذا رأيت من تهباً للسير فسير قلبه ، ولا تكن في تدبير  
 عيشك أبله ، تعلم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كلفت جمع المثونة بتيسير المعونة ،  
 وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم  
 الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبر ما أدخره من الحب لقوتى ، في بيوتى » .  
 والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير في الطريق السديد ، واعياً لحكمة الله  
 في خلقه ، متعظاً بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء  
 تير له دنياه ، وتمده إعدادا حسنا لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية  
 لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقا مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ آبدة غريبة ،  
 وتتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . ويجانب الأبيات  
 المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعا .

## ٥

### أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل .

خلفت الشام في هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة ، ويلقانا في مفتحه كشاجم ، وله كتاب  
 المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قيل فيه من الأشعار عرضا طريفا ، وله بجانبيه كتاب  
 في البريزة أو بعبارة أخرى في جوارح الصيد ، وكتاب في أدب النديم . ولأبي العلاء المعري أعمال  
 أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسلم بها عما قليل ، وفي خريدة القصر قسم الشام  
 رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والبلبل ، وسفرد لها كلمة موجزة ، وفي الخريدة أيضا  
 رسالة <sup>(١)</sup> طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شابا سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها  
 معاشره الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غصّة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تندمل كلومها ،  
 وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقتل . ويفيض في وصف الصيد  
 وماركبوها فيه من خيل وما حملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبزاة وشواهين ، ويطنل في بيان صيد

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام)

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهي رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق في فنه وسجماته وجرسها الموسيقي وفي تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى في القرن السادس الهجري بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه ما نظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله في سبعة كتب : في الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : في الأدب وكتبان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد في كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وماروى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شيزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول في مقدمته : « دعاني إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جرَّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها <sup>(١)</sup> حوله وحيله <sup>(٢)</sup> ، فأصبحت ( كأن لم تُغْنِ بالأمس ) موحشة العرصات بعد الأنس ، قد دثَّرَ عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانبا <sup>(٣)</sup> رسوما ، والمسرات بها حشرات وهموما » وهو كتاب ضخيم في نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقه من أشعار بديعة ، وقد جعله في ستة عشر فصلا : في المنازل والديار والمغانى والأطلال والربيع والدمن <sup>(٤)</sup> والرسم والآثار والمسكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخسه بكلمة . ونمضى إلى زمن المالمك وبلغانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية في الطبيعة والطيور والحیوان والأخلاق وسنلم به عما قليل .

وتلتقى في زمن المالمك باین حجة الحموی وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث في زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

(٣) مغانبا : منازل

(٤) الدمن : آثار الديار

(١) تعفيتها : دنورها وطمسها

(٢) الحيل : فلول والقوة

وبأخرة من عصر الماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» وسنفرده له كلمة .

وتتقدم إلى أيام العثمانيين ، وملتقى بهاء الدين العاملى الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله المغللة ، وهى كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادير ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو فى مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمنصوفة ومفلسفة ولشعراء الغزل والحجاسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

### (١) رسالة<sup>(١)</sup> الغفران

رسالة طويلة فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء رداً على رسالة لعلى بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وهى تنقسم قسمين : قسماً يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة فى الجنة يلتقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفِرَ لَهُمْ ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظاراً لمصيره وقد ظل فى المحشر واقفاً حتى تعب من شدة الحر والظمأ ، وكان معه صك التوبة ففكر فى دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَقَمَ القصائد الطوال فى مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئاً ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام على بن أبى طالب ، ورأى أبا على الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية فى تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبى طالب منه شاهداً على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز؟ ويجذب به إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقدم ابن القارح مادة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فىرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر فى رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) (المعارف)

(طبعة د. بنت الشاطى) وهى طبعة عميقة (نشر دار

أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالحطينة والخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامراً القيس وعترة واثني عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبي ومجاورهم جميعا . ويعود فيلتي بآدم عليه السلام وبعض الحيات التي ظلمت في الدنيا ، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجَاز ، ومجاورهم في أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهي رحلة ابن القارح على الصراط وما شاهد من عذاب في الجحيم ومن نعم لا يماثله نعيم في الجنة ، ويفضي ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول في الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العالمية ، إذ كتب دانتى الشاعر الإيطالي المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين .

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبي العلاء عن الزنادقة والزنادقة ، وقد استلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه في زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرقة الأدب وهموما ، ودفع عن المتنبي ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متأها كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك في عقيدة دعلج . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه ، وفي مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهنود وبالخلول من الصوفية كالخللاج ، وأصلى ابن الراوندى الزنديق<sup>(١)</sup> هو وكتبه : التاج والداغ والقضيب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الدم والتفريع ، ومن قوله في التاج وهو أهم كتب ابن الراوندى الكافرة : لا يصلح أن يكون نعلا ، وأفٌ وتُفٌ ، وجورب وخُفٌ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ في مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وبعض علماء حلب وتبليبات العرب في الجاهلية وبعض مسائل فرعية .

(١) راجع في ابن الراوندى وإلحاده والرد عليه كتاب

من تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بن بلي

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صَوَّرَ فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق في حوارهِ مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وما ذكر من قصائدهم . وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثيرة في زمنه وما فيها من خروج على الدين والحاد ومروق ، وقد أنحى بدمٍ عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حملَّ الرسالة سخرية من الدين الخفيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذي ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمانهم وعصورهم لم يحطَّ به ، وهو لا يكتفي بالإغراب في ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا في غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبلى الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لمعهده في العقد الثالث من القرن الرابع .

### (ب) رسالة (١) النَّسْر والبلبل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان الدمشقي ، ترجم له العماد الأصمباني في خريدته . وقال إنه زاره في مدرسته العمادية التي كان يدرس بها لطلابهِ في ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنَّسْر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. « ثم ذكر - فيما يبدو فاتحتها ، وهي تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاء غبطة وفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أنى ملك الطيور ليس لى شيء من سحره وجماله ؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسْر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفلق (٢) وانخرق قيص الغسق (٣) مشهور بالقسر (٤) ، موسوم بالنَّسْر ، والليل قد شابت ذؤابته (٥) ، وايضت فتته . .

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قيم الشام) ٣٤٠/١ (٣) الغسق : الليل .  
 وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره في  
 كتاب المحمدون من الشعراء والرواق بالوفيات ٣٣٠/٢ (٤) القسر : القهر  
 (٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة واضحة  
 (٢) الفلق : الصبح

كأنما أجنحته رُكبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رُشِق (١) عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق في أفق السماء . . يقبض أجنحته ويسط ، ويصعد إلى السماء ويبسط يجرح بأسنة قواده (٢) أعطاف القبول (٣) وأطراف الصبا ، ويُقدِّد الشمال بخوالف (٤) كأنها غروب (٥) الطُّبَا ، ويفتق بخوافيه (٦) جُيُوبَ الجنوب (٧) ، ويخرق بصدرة صدر الرياح في الهبوب . . حتى أشرف . . على روض أريض (٨) . وظلُّ عريض ، وأنهارٍ متدفِّقة ، وأشجار مونقة ، وطلُّ مشور ، وورْد ومشور (٩) ، ومكان بهج ، وزهر أريج . . فن ورد فضيُّ الأوراق ، ذهبي الأحداق ، كافوري الصبغة ، مسكي الصبغة ، مائي الجسم ، هوائي الرسم ، حاكت (١٠) الصبا إهابه ، وخاطت الشمال أتوابه ، وفتحت الجنوب أكمامه ، وحسرت (١١) الدُّبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر في أفق الشجر ، كأنه شهب السحر ، أو حدود الحور في القصور ، ظهرت في غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وتترنح وتعنتق ، والنسائم تحلُّ عَقْد أزرار الزَّهر . . والشمس تُسفر وتتقب ، وحاجب الغزاة (١٢) يبدو ويحتجب . . فوقف [النسر] في الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح . . وبيننا هو صافئ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحريُّ على وَكْر شجريُّ ، يناغي النسائم بنغمة زمماره ، ورنَّة أوتاره . . وألحان أعذب من نقرات المزهار ، ينثر دُرًّا من عقود ألحانه ولؤلؤًا من صَدَف افتنانه بين أفنانه (١٣) ، ويرجِّع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه . . كأنها ماقيل عن مزامير آل داود ونسايحهم في الركوع والسجود . . أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى (١٤) جنوبيهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ في الزمار ، فرأى البلبل يرجِّع سجع ألحانه في ربع أحزانه . .

- 
- |  |   |
|--|---|
| (١) رشق : رمى                                | (٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر         |
| (٢) القوادم : الريش الطويل في مقدم الجناح    | (٩) المشور : زهر له رائحة ذكية              |
| (٣) القبول : ريح الصبا الشرقية               | (١٠) حاكت : نسجت                            |
| (٤) خوالف : جمع خالفة هي الريش في مؤخر النسر | (١١) حسرت : كشفت . واللبور ريح تهب من الغرب |
| (٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد - والظبا :   | (١٢) الغزاة : الشمس .                       |
| جمع ظبية وهي الحد للرمح ونحوه                | (١٣) أفنانه : أغصانه .                      |
| (٦) الخوافي : الريش القصير في الجناح         | (١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن  |
| (٧) الجنوب : ريح جنوبية                      | المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .              |

وإذا كان العباد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب في هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بنخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره . ويفتقن النسر صوت البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما في نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغائه ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهي أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير وبترك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، ما يكون الدر بقدر الصدف ، وشتان ما بينهما في القيمة والشرف ، ولا الآدمي كالقليل ، وبينها بؤن في التفصيل .. وأما النغمة التي قرع سمعك سوط لذتها .. فإنني رصّعت شذرها<sup>(١)</sup> في عقد ألعاني على نغم بعض الأغاني . »

ويذكر البلبل للنسر أنه كَوَّن ألعانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولى النهار وصَبَّح الليل ثوب الكون بظلمته وتُشعلُ له الشموع وتصطف القيان وصفوف الحور والولدان وترجع الأنغام والألحان ، وينقضي ليلهم في لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألعانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحدو حدوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت في الروض غير أنه ينام ، ويضيق منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووَجَّه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودَّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطيل المهذب في العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدرك الأرب . ويقول العباد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجدد في طلب المنى دون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن الغفلة وما يشبه الغفلة .

### (ج) كتاب الاعتبار<sup>(٢)</sup>

مذكرات طريفة لأسامة بن مقبذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) ١٩٣١ وراجع ما كتبه عنه في كتابنا : الترجمة

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب في برستون سنة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

شيزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتقل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف ماشاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب ، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفا حيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم في بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر في صراحة أن المودة انعمدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لا توجد عندهم غيرة على نساتهم ، ويصورهم متخلفين في الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة ( في أعالي الشام ) كتب إلى عمى أمير شيزر يطلب منه إنقاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت لما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دُملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء ( فكيف ) يداويها ؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفاسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة ( قطعة ) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ؛ فضره وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضره ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من ماكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه » .

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم وما أخذوه من العادات الإسلامية الشرقية في المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولا أى نسق تأليفي ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولا تكلف ، فلا سجع يداخله ولا محسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيبتها يصف ما شاهد وصفا نابضاً بالحياة في لغة سهلة ، حتى لتقرب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ في الإعراب وفي نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لا يتصل في الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبي الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفريقية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل ما يتصل به من لغة الناس لزمه . وفي الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

### (د) نسيم<sup>(١)</sup> الصبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعدُّ طريقة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقي المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عُيِّن محتسباً بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والحليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفي سنة ٧٧٩ . وله تاريخ في سلاطين الماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه في أيام المنصور (قلاوون) وبنه ، وله في السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب في أشرف المناقب ، والمقتنى في ذكر فضائل المصطفى .

والشذرات ٢٦٧/٦ ونقاربط الصفدى لنسيم الصبا بين يدي طبعته سنة ١٢٩٠ هـ .

(١) انظر في نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكائنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١١

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصُّبا » وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً ، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطيور ، إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحياناً أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والثناء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينها من الفراق أو يرضيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس . ونشعر دائماً بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عبابه :

« هزَّتني رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء نَبج<sup>(١)</sup> البحر المحيط ، فأنتيت سفينة يطيب للسَّفَر مَثَواها ، وركبتُ فيها ( بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ) .. يالها سفينةٌ ، على الأموال أمينة ، ذات دُسْرٍ<sup>(٢)</sup> وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتظير بغير جناح ، وتتناض عن الحادي<sup>(٣)</sup> بالملاح ، تخوض وتلعب ، وترد<sup>(٤)</sup> ولا تشرب ، لها قِلاع كالقلاع<sup>(٥)</sup> ، وشرع يحجب الشعاع ، وسكينة وسكَّان<sup>(٦)</sup> ومكانة وإمكان ، وجُوجُو وققار<sup>(٧)</sup> ، وأضلاع محكمة بالقار<sup>(٨)</sup> .. بعيدة ما بين السَّحْر والتَّحْر<sup>(٩)</sup> ، من أحسن الجوارى<sup>(١٠)</sup> المنشآت في البحر ، معقودٌ بنواصيها<sup>(١١)</sup> الخير كالخَيْل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل :

- 
- (١) نَبج : وسط .  
(٢) دُسْر : حبال .  
(٣) الحادي : سائق الإبل بالهداء وهو الغناء للإبل  
(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه  
(٥) قلاع الأولى : شرع السفينة جمع قلع . وقلع الثانية : جمع قلعة وهي الحصن  
(٦) سكينة : سكان السفينة : دثها  
(٧) الجوجو : صدر السفينة . الققار : جمع فقارة وهي الواحدة من عظام سلسلة الظهر  
(٨) القار : القطران  
(٩) السحر : الرثة ، النحر . أعلى الصدر  
(١٠) الجوارى : السفن  
(١١) نواصيها : مقدماتها . وفي الخيل : الشعر في مقدمة الرأس

ما رأى الناس من قصورٍ على الماء سواها تسيرٌ سيرَ القِداحِ (١) كأنها وَعِلٌّ (٢) ينحطُّ من شاقٍ ، أو عَرَبِاضٌ (٣) سابقٌ يحمُّه سائقٌ ، أو عقربٌ شائله (٤) ، أو عُقابٌ صائلةٌ (٥) .. حاكمها (٦) عادلٌ في حكمة ، عارفٌ ينقضُ أمرها وبرِّمه (٧) ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئُ باسمِ الحى القيومِ .. وبينما نحن من البحر في قاموسه (٨) ، كتب الجؤُ حروف الغيم في طروسه ، وثارت ريح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فالت بنا الفلك (٩) واضطربت ، ودنت شفتها من رَشْفِ الماء واقتربت ، واستمرت تعلقو على الأوتاد (١٠) ، وتهم في كل واد . وتضرم في الكبود نار ناجِرٍ (١١) ، إلى أن ( بلغت القلوب الحناجر (١٢) ) .. ثم نظر إلينا من لآ تحقِّي عليه السرائر ، وأمر الجارية (١٣) بحمل عبيده إلى بعض الجزائر .

ونزلوا الجزيرة وتزهوا في رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصابؤه درر . ويمضى ابن حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يتمتع الآذان والأذهان بجورسه وما بين الألفاظ من ملامات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين تستمع إليه . ويحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقرظاً له : « لقد أشبه الدر فى انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقَطْرُ الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البُكر إذا غنت على غصونه مطرباتُ حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملامعة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتقى جوهره وأجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائماً يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

(١) القِداح : السهام

(٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى

(٣) المرباض : البعير الضخم

(٤) شائلة : رافعة ذنبا

(٥) صائلة : واثية جائلة

(٦) حاكمها : ربانها

(٧) برم الحبل ضد نقضه والاستمارة واضحة

(٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجة العظيم

(٩) الفلك : السفينة

(١٠) الأوتاد : الجبال

(١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة

(١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت

الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من

الفرع

(١٣) الجارية : السفينة

( هـ ) فاكهة<sup>(١)</sup> الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عريشاه أحمد بن محمد الدمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها ، حتى كانت طامة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التار لها وإشغالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عريشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يجسها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذي أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بجلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتييمور سماها عجائب المقدور في نواب تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويحيد الكتابة - كما أسلفنا - في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزبان نامه » طبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة . وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبي المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعترلهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه . فجمع الملك

٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة

الخلفاء »

(١) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عريشاه

الجموم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والنصوة اللامع للسخاوى ١٢٦/٢

وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصي مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول في ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وقتل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساماني الذي كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ما صادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مآدبة لذئب فقدم الحمار مآدبة للكلاب . والباب الثاني في وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع ختنه أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعمارة . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق النسيمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمل ، ويأمن ما يحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة قليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على السنة الوحوش وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيوار ومائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها الطباع ، لأن المؤلف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفظنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الأذان إلى استماع أخبارها ، وتلقها الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يفرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذي طمَّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفظنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلجُ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فىنبغى أن ينفق فى مصالحها وحوادثها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائماً لقارئة الأخلاق الحميدة والشائىل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إختلاها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأقاويص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعليّة الناس وصعاليكهم . ولابد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكي كليلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألمنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحيكه كحكم هذا الكتاب تردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلم من شئون السياسة والحكم وما يهدى إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتسب ، ووذائل تجتنب ، وما أروع الحكمة التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يابنى اكتسبوا العلم والفضل وأدّخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

## خاتمة

تحدثنا في هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدبي في عصر الدول والإمارات وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفي عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حصة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عباد الدين زنكي الرها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حملة الصليب في حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون، ثم المماليك وسحقهم للمغول في عين جالوت مشهور . وكانت مصر والشام في أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جحافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع في الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظالما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر في الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهي المسماة بالفداوية وبالحمشاشين. وقد مضت الشام تُعنى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدرائش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وقد نفذت بمجرد دخولها في الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثرت في بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني وفي العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعيات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ما عُنيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجري يتألق اسم كثيرين من نحاتها أمثال الزجاجي وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسي ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أبو العلاء المعري ، ونلتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتولى فيها النقد من أبي العلاء إلى يوسف البديعي أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدراسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبدالغنى النابلسي في بديعيتيه المشهورتين . وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة ، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزرى في القرن التاسع الهجري . وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة ، كما تنشط دراسة الحديث النبوي ويتكاثر حفاظه التابعون ، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى ، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووى الشافعى وابن تيمية الخنبلى ، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعرى . وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء .

وكانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام لاعلى الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والفساسنة بعدهم فحسب ، بل أيضا في داخل البلاد الشامية ، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين ، وكانوا يدينون بدينهم المسيحى . وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامى ، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين . ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر ، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها ، وطوال عصر بني أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيدية إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبى تمام والبحترى . وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاط سيف الدولة ، على نحو ما يصور ذلك الثعالبي في اليتيمة .

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العماد الأصهباني شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة . وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجرى وما بعده . ويكثر الشعر الدورى والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أيْدُمَر المحيوى والمحرَّار الحلبي ، وبالمثل البديعيات والتعقيدات ، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخطيب وابن القيسراني وابن الساعاتى والشهاب محمود ومنجك . وتدبج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبى العلاء المعرى ومنصور بن مسلم وابن الجزرى . ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن جَيوس وبهاء الدين العاملى .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير في النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو ماقرأ عند عبد المحسن الصوري وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملثوا الدنيا ضجيجا بمفاخرهم وبسالهم في سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم وما يسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو ماقرأ عند أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . وولتقى بكثيرين من شعراء المرائي والشكوى مثل ابن سنان الخفاجي والغزوي وفتيان الشاغوري ومصطفى الباني . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بجمال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو في المنتزهات والأديرة على نحو ماقرأ عند الوأواء الدمشقي وابن قسيم الحموي ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية وما يتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبد العزيز الأنصاري ومحمد بن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي . ويجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وتُعنى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة في عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو ما نجد عند العباد الأصبهاني الناثر الشاعر والصفدي وابن حجة الحموي وكانا أيضا نائرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ما أملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأديباء للشكر وللتهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ما كانوا يراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائي والغزوي ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولا تعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريري ، إذ تُعنى بالوصف أو بالوعظ أو المفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت تفرغ في موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفي مقدمتها خطب ابن نباتة وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي . وتتكاثر في العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والليل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

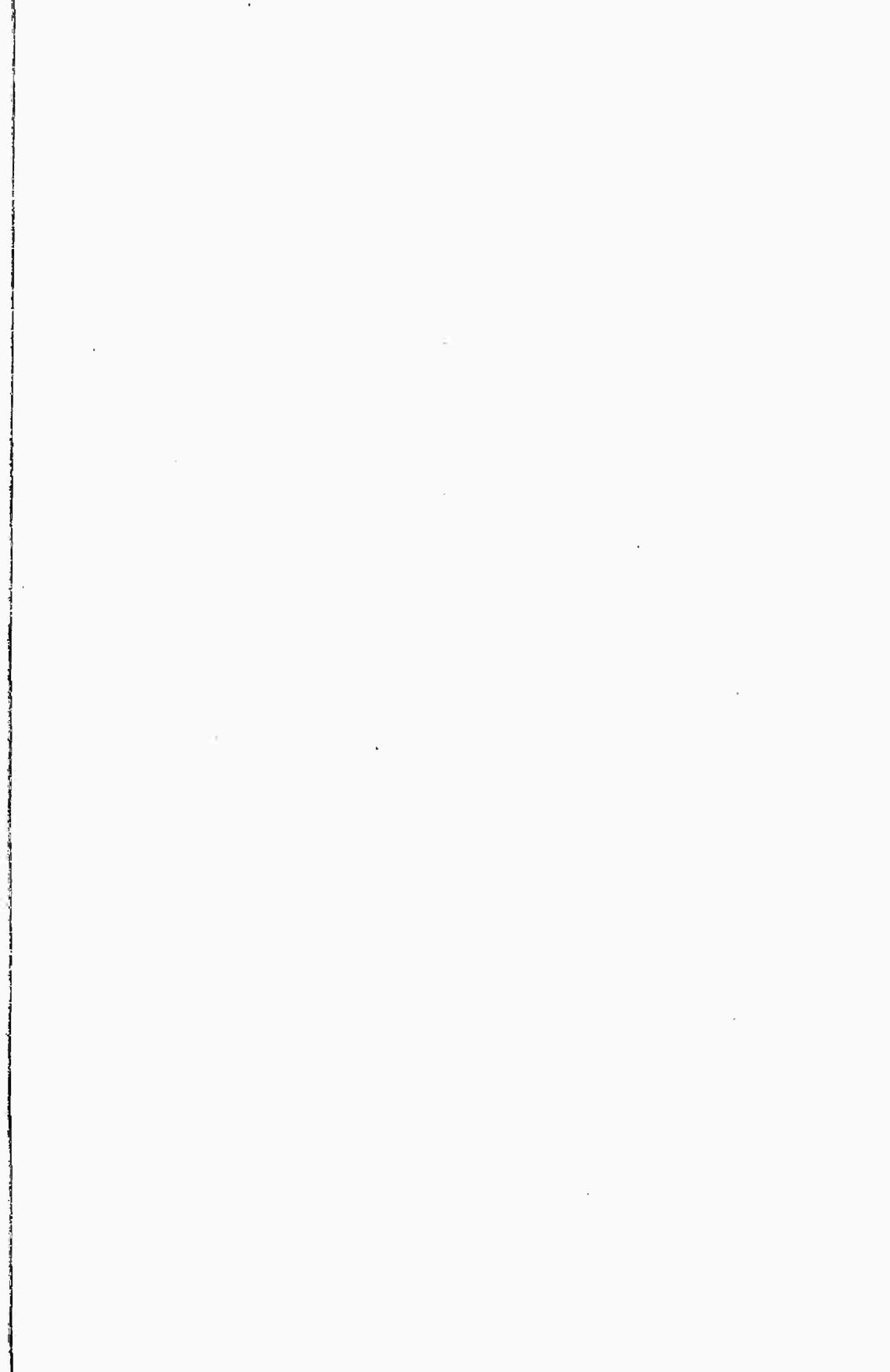
# الفهرس

| صفحة     |   |
|----------|---|
| 0        | ..... مقدمة   |
| 09- 9    | ..... الفصل الأول: السياسة والمجتمع                                       |
| 9        | ..... ١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى                                   |
|          | ..... (أ) فتح العرب للشام   |
|          | ..... (ب) زمن الدولة الأموية  |
|          | ..... (ج) زمن الولاة العباسيين  |
|          | ..... (د) الطولونيون - القرامطة   |
|          | ..... (هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)                           |
|          | ..... ٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى          |
| ٢٣       | ..... (نور الدين)   |
| ٢٩       | ..... ٣ - الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون                  |
| ٣٧       | ..... ٤ - المجتمع   |
|          | ..... ٥ - التشيع: الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدروز - الإسماعيلية |
| ٤٥       | ..... النزارية أو الفداوية أو الحشاشين                                    |
| ٥٢       | ..... ٦ - الزهد والتصوف   |
| 119- ٦٠  | ..... الفصل الثاني: الثقافة   |
| ٦٠       | ..... ١ - الحركة العلمية  |
| ٧٠       | ..... ٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا                                    |
|          | ..... (أ) علوم الأوائل  |
|          | ..... (ب) علم الجغرافيا   |
| ٨١       | ..... ٣ - علوم اللغة والنحو والتقد والبلاغة                               |
| ٩٣       | ..... ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام                   |
| ١١١      | ..... ٥ - التاريخ   |
| 198- ١٢٠ | ..... الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء                                   |
| ١٢٠      | ..... ١ - تعرب الشام  |
| ١٢٤      | ..... ٢ - كثرة الشعراء  |
| ١٢٨      | ..... ٣ - شعر دوري - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات                 |

|         |  |
|---------|--|
|         | (أ) الشعر الدورى   |
|         | (ب) الرباعيات  |
|         | (ج) الموشحات: أيدمر المحيوى. المحار الحلبى                                       |
|         | (د) البديعيات  |
|         | (هـ) التعقيدات   |
| ١٤١     | ٤ - شعراء المديح .....   |
|         | ابن الخياط - ابن القيسرانى - ابن الساعاتى - الشهاب محمود - منجك                  |
| ١٦٣     | ٥ - شعراء الفلسفة والحكمة .....  |
|         | أبو العلاء المعرى - منصور بن المسلم - حسين الجزرى                                |
| ١٨٣     | ٦ - شعراء التشيع .....   |
|         | كشاجم - ابن حيوس - بهاء الدين العاملى  |
| ٢٩٤-١٩٩ | الفصل الرابع: طوائف من الشعراء .....   |
| ١٩٩     | ١ - شعراء الغزل .....  |
|         | عبدالمحسن الصورى - ابن منير - الشاب الظريف - حسن البورى                          |
| ٢١٦     | ٢ - شعراء الفخر والهجاء .....  |
|         | أبو قراس الحمدانى - عرقله - أسامة بن منقذ - ابن عنين - ابن النحاس                |
| ٢٤٠     | ٣ - شعراء المرانى والشكوى .....  |
|         | ابن سنان الخفاجى - الغزى - فتيان الشاغورى - مصطفى الباجى                         |
| ٢٥٧     | ٤ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو .....   |
|         | الوآء الدمشقى - ابن قسيم الحموى - مجير الدين بن تميم - ابن النقيب                |
| ٢٧٢     | ٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية .....                                   |
|         | عبد العزيز الأنصارى - محمد بن سوار - عفيف الدين التلمسانى -<br>عبدالقنى النابلسى |
| ٢٩٠     | ٦ - شعراء شعبيون: أبو العلاء بن مقاتل .....                                      |
| ٣٤٧-٢٩٥ | الفصل الخامس: النثر وكتابه .....   |
| ٢٩٥     | ١ - الرسائل الديوانية .....  |
|         | العماد الأصبهانى - الصفدى - ابن حجّة الحموى                                      |
| ٣١٠     | ٢ - الرسائل الشخصية .....  |
|         | (أ) رسائل أبى العلاء   |
|         | (ب) رسائل متنوعة   |
| ٣١٨     | ٣ - المقامات: ابن الوردى .....   |

صفحة

|         |   |
|---------|---|
| ٣٢٥     | ٤ - المواعظ والابتهالات .....                 |
|         | (أ) خطب ابن نباتة الفارقي .                   |
|         | (ب) الفصول والغايات                           |
|         | (ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بين الزكي |
|         | (د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار        |
| ٣٢٤     | ٥ - أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل .....       |
|         | (أ) رسالة الغفران                             |
|         | (ب) رسالة النسر والبلبل                       |
|         | (ج) كتاب الاعتبار                             |
|         | (د) نسيم الصبا                                |
|         | (هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الطرفاء            |
| ٣٥٠-٣٤٧ | خاتمة .....                                   |



## كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

- لأ عصر الدول والإمارات  
(ليبيا - تونس - صقلية)  
٤٤٦ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (الجزائر)  
(المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان)  
٧٠٦ صفحات
- في مكتبة الدراسات الأدبية
- لأ الفن ومذاهبه في الشعر العربي  
٥٢٤ صفحة
- لأ الفن ومذاهبه في النثر العربي  
٤٠٠ صفحة
- لأ التطور والتجديد في الشعر الأموي  
٣٤٠ صفحة
- لأ دراسات في الشعر العربي المعاصر  
٢٩٢ صفحة
- لأ شوقي شاعر العصر الحديث  
٢٨٦ صفحة
- لأ الأدب العربي المعاصر في مصر  
٣٠٨ صفحات
- لأ البارودي رائد الشعر الحديث  
٣٠٨ صفحات
- لأ الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية  
٣٣٦ صفحة
- لأ البحث الأدبي  
(طبيعتها - مناهجه - أصوله - مصادره)  
٢٧٨ صفحة
- لأ الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور  
٢٥٦ صفحة
- لأ في التراث والشعر واللغة  
٢٧٦ صفحة
- لأ في الشعر والفكاهة في مصر  
١٢٨ صفحة

- في الدراسات القرآنية
- لأ الوجيز في تفسير القرآن الكريم  
١٠٥٢ صفحة
- لأ سورة الرحمن وسور قصار  
«عرض ودراسة»  
٤٠٤ صفحات
- لأ عالية الإسلام  
١١٩ صفحة
- لأ محمد خاتم المرسلين  
٤٧٦ صفحة
- لأ الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة  
٣٣١ صفحة
- في تاريخ الأدب العربي
- لأ العصر الجاهلي  
٤٣٦ صفحة
- لأ العصر الإسلامي  
٤٦١ صفحة
- لأ العصر العباسي الأول  
٥٧٦ صفحة
- لأ العصر العباسي الثاني  
٦٥٧ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات  
(الجزيرة العربية - العراق - إيران)  
٦٨٨ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (الشام)  
٣٥٦ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (مصر)  
٥٠٠ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (الأندلس)  
٥٥٢ صفحة

- المقامة  
□ ١٠٨ صفحات  
□ النقد  
□ ١١٢ صفحة  
□ الترجمة الشخصية  
□ ١٢٨ صفحة  
□ الرحلات  
□ ١٢٨ صفحة  
□ الحب العذرى  
□ ١٤٨ صفحة  
في التراث المحقق  
□ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد  
(الجزء الأول)  
□ ٤٦٨ صفحة  
□ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد  
(الجزء الثانى)  
□ ٥٧٢ صفحة  
□ كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد  
□ ٧٨٨ صفحة  
□ كتاب الرد على النحاة  
□ ١٥٢ صفحة  
□ الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر  
□ ٣٥٦ صفحة

### فى سلسلته «اقرأ»

- مع العقاد  
□ البطولة فى الشعر العربى  
□ الفكاهة فى مصر  
□ معنى (١)  
□ معنى (٢)  
□ القسم فى القرآن الكريم  
□ ٦٦٦ صفحة

- من المشرق والمغرب  
(بحوث فى الأدب)  
□ ٢٧٢ صفحة  
فى الدراسات النقدية  
□ فى النقد الأدبى  
□ ٢٥٠ صفحة \*  
□ فصول فى الشعر ونقده  
□ ٣٦٨ صفحة  
□ فى الأدب والنقد  
□ ١٥٢ صفحة  
فى الدراسات البلاغية واللغوية  
□ البلاغة: تطور وتاريخ  
□ ٣٨٠ صفحة  
□ المدارس النحوية  
□ ٣٧٦ صفحة  
□ تجديد النحو  
□ ٢٨٢ صفحة  
□ تيسير النحو التعليمى قديماً وحديثاً  
□ مع نهج تجديده  
□ ٢٠٨ صفحات  
□ تيسيرات لغوية  
□ ٢١٠ صفحة  
□ تحريفات العامية للفصحى  
□ ٢٠٣ صفحات  
فى مجموعة نوابغ الفكر العربى  
□ ابن زيدون  
□ ١٢٤ صفحة  
فى مجموعة فنون الأدب العربى  
□ الرثاء  
□ ١١٢ صفحة